# القضية الفلسطينية والعراق: مركزية أم هامشية أم ماذا؟

حامد العطية

مركزية القضية شعار قديم، من النكبة إلى العدوان فالنكسة ثم حرب التحريك حتى كاد أن يندثر، فلم نعد نسمع به إلا في بضع عواصم عربية وإسلامية، بتعبير أو آخر، وبين الفينة والفينة. لا تعتبر قضية ما مركزية إن لم تحقق شروطاً ملزمة، أولها أن تكون في مقدمة الأولويات، بأهمية استرجاع ولد مخطوف، وسد رمق موشك على الهلاك، ورد اعتداء على الشرف ولو بطلاع الروح، والقضاء على محتل مذل، إذ أن فلسطين ليست مجرد وطن محتل بل هي عضو حيوي من جسم الأمة، أشبه بالقلب منه إلى الرئة، وفقدانه أو التفريط فيه يهدد وجود الأمة جمعاء، والشرط الثاني تصدرها مع الضروريات الحيوية في تخصيص الموارد البشرية والمادية، للصرف على ما يقرب من بلوغ الهدف، من عقائد وقيم ومعرفة وثقافة ونفير وجميع وسائل القتال من دون استثناء وتطور اقتصادي، والعقيدة جاهزة لذلك، بل هي تفرضه وإن أنكرها المنكرون، وهي فرض أيضاً في القيم الاجتماعية، والواجب أن تكون فلسطين وقضيتها المركزية مادة دراسية في كل مراحل الدراسة وكلية للدراسات في الجامعات، ومتحفاً يليق بقدسيتها في العواصم والمدن، وأن تعمدها الثقافة بالنثر والشعر وكل الفنون، حتى تنحفر في الذاكرة أن لا نسيان حتى التحرير الكامل، وفي مجال السياسة تفرز مركزية القضية الحلفاء من الأصدقاء والأعداء، فتعقد التحالفات مع الجادين في نصرة القضية وتقوى العلاقات مع الأصدقاء وتقطع مع الأعداء وكل من يناصر الصهاينة، وفي الاقتصاد كذلك.

لسنا بحاجة لتقصي مركزية القضية في العراق منذ تكوين دولته الوطنية إذ تكفي أقل من خمسين سنة وبالتحديد منذ 1979م وحتى الآن. شهد ذلك العام أول قرار لحكومة البعث العراقية مضاد لمركزية القضية، إذ وأد مشروع اتحاد بين العراق وسوريا، وتحولت العلاقات الباردة بين البلدين إلى عداء ظاهر ومستحكم، تلاه في العام التالي ثلمة كبرى في هذه المركزية بشن العراق (ليس النظام الحاكم فقط بل العراق بأكمله سوى نفر ضئيل من المعارضين غير الفاعلين) حرباً ضروساً على إيران التي قطعت حكومتها الثورية الصلات الوثيقة للنظام الملكي البائد مع الكيان الصهيوني وتبنت مركزية القضية، واستمرت الحرب ثمانية أعوام بدعم من دول الغرب والشرق والدول العربية العميلة للغرب أنهكت جيش العراق واستنزفت قواه البشرية والمادية، وأحيا العراق الفتنة الطائفية النائمة وهيأ الأرضية للانقسام بين المسلمين وصرف اهتمامهم عن قضية فلسطين في تسمية حربه بالقادسية الثانية ووصفه الشعب الإيراني المسلم بالفرس المجوس وهو وصف ينطبق أيضاً على جميع الشيعة العرب وغير العرب بما في ذلك غالبية الشعب العراقي وقواته المسلحة، كما نصب تماثيل تشير أصابع شخوصها بالاتهام نحو إيران لا الكيان الصهيوني.

كان احتلال العراق للكويت أقرب الحلفاء للنظام في حربه على إيران الضربة الثالثة لمركزية القضية، إذ قسمت الدول العربية، وعمقت الخلافات فيما بينها، وفتحت المجال لتدخل أمريكا ودول الغرب ونشر قواعدها في بعض دول المنطقة، وخرج العراق من حرب الخليج الأولى مدحوراً ليراكم خسائره البشرية والاقتصادية والاجتماعية وقدم خدمة كبرى لأمريكا وجيشها إذ وفر له انتصاراً

سهلاً وإحياءً لمعنوياته وسمعته التي انهارت إثر هزيمته المدوية في فيتنام، كما سارعت الدول العربية العميلة لفتح أراضيها للقواعد العسكرية الأمريكية. والحصار الاقتصادي الذي تلا الحرب أضاف خسائر كبيرة على الاقتصاد والمجتمع العراقي في الوقت الذي انهمكت الحكومة في بناء قصور للحاكم، ولإكمال ما بدأته في حرب الخليج الأولى شنت أمريكا وحلفاؤها حرب الخليج الثانية التي قضت على البقية الباقية من قوة العراق العسكرية والاقتصادية واحتلال العراق، وانتهت هذه المرحلة الأولى من تاريخ العراق بتغربه شبه الكامل عن القضية الفلسطينية، ولم تكن تلك النتيجة الوخيمة للمغامرة العراقية الفاشلة بل نتجت عنها آثاراً عرضية كارثية أضرت بالقضية الفلسطينية ضرراً بالغاً، فكان انشغال العراق بمغامرته وتآكل قدراته الفرصة المؤاتية لاستسلام الدول العميلة والمنظمات الانهزامية للكيان الصهيوني واستباحته للمزيد من الأراضي العربية:

أولاً: ظهور انقسامات وتصدعات لا يستهان بها بين الدول العربية والإسلامية نتيجة الحروب والاحتلال والفتن الطائفية والإثنية.

ثانياً: زيارة الرئيس المصري لفلسطين المحتلة ليعلن تخلي مصر الدائم عن القضية المركزية وعن خيانة قطاع غزة الذي كان أمانة كبرى في أعناق المصريين حكومة وشعباً.

ثالثاً: احتلال الكيان الصهيوني لبنان وعاصمته بيروت في 1982م واكتفاء العرب بالاستنكار والتفرج وبداية المقاومة اللبنانية لإخراج القوات الصهيونية المحتلة وعملائها والتي كلفت اللبنانيين المقاومين وبيئتهم ثمناً باهظاً في الأرواح والممتلكات ولم يكن اندحار القوات الصهيونية وعملائها اللحديين نهاية لهذا الصراع الذي تجدد في 2006م واليوم.

رابعاً: اضطرار منظمة التحرير الفلسطينية إلى إيقاف عملياتها ضد الكيان المحتل ومغادرة لبنان مما أدى إلى حدوث مجازر مهولة للفلسطينيين في لبنان بأيدي الصهاينة وعملائهم من الأحزاب والمليشيات المسيحية.

رابعاً: توقيع منظمة التحرير الفلسطينية ورئيسها عرفات اتفاقية أوسلو في 1993م التي بموجبها اعترفت بالكيان الصهيوني المحتل ونبذها للكفاح المسلح مقابل وعود جوفاء أخل بها الصهاينة.

خامساً: اتفاقية وادي عربة بين الأردن والكيان الصهيوني في 1994م والتي بموجبها خرجت الأردن من العداء الظاهري مع الكيان الصهيوني إلى جارة مسالمة ومتعاونة معه.

سادساً: اطلاق مبادرة الملك السعودي عبد الله للسلام مع الصهاينة تقضي بالاعتراف بالكيان اللاشرعي واحتفاظه بأرض فلسطين والتطبيع معه مقابل انسحابه من الأراضي التي احتلها في حرب 1967م، ولم تجد قبولاً لدى الصهاينة.

سابعاً: استقواء دول الخليج التابعة لأمريكا والغرب وفرضها سياساتها على بقية الدول العربية.

احتلت أمريكا وحلفاؤها العراق، وعينت أمريكياً لإدارة الاحتلال ومجلساً للحكم من عراقيين متعاونين مع الاحتلال، ثم اختلقت نظاماً سياسياً على أسس طائفية وإثنية لإضعافه وتمكين أمريكا وعملاءها من السيطرة عليه، وكبلته باتفاقية أمنية، وقبل انسحابها الشكلي غير الكامل تسببت في مقتل حوالي مليون عراقي بأيدي المحتلين والإرهابيين الذين دعتهم للمنازلة على أرض العراق، ثم عادت واحتلته بقوات أصغر بعد احكام سيطرتها على حكومته وجيشه

وقواته الأمنية، وتركته هدفاً سهلاً لعصابات داعش الإرهابية فانهزم الجيش المدرب والمسلح أمريكياً في أيام فاضطروا لاستنفار الشيعة المدنيين لمحاربة داعش الذي أوشك على الاستيلاء على كافة محافظات العراق، وبينما يدعي العراق (العراق لا الحكومة فحسب إذ أن حكومته منتخبة من قبل الشيعة والسنة والأكراد وغيرهم) وجود اتفاق على انسحاب أمريكي وشيك باستثناء "عدد من المستشارين" يرزح تحت وصاية أمريكية أشبه بالانتداب وقواعد عسكرية تستبيح أجواءه وحدوده، وتودع عائدات نفطه في البنك المركزي الأمريكي، وتحظر عليه شراء سلاح من غير أمريكا أو الاتفاق على مشروع رئيسي من دون موافقتها، وتستغل قواعدها المنتشرة على أرجاء البلاد للتجسس على إيران والجماعات المناهضة لاحتلالها، وتشارك هذه المعلومات مع الصهاينة الذين نسجوا علاقات وثيقة مع الأكراد في شمال العراق الذين لا يخفون صداقتهم للصهاينة وإن أنكروا وجود مراكز سرية للموساد الصهيوني في منطقتهم, وعلى أرض العراق اغتالت أمريكا قائد قوات القدس الإيرانية سليماني الذي ساعد العراق في محاربة داعش فلم تفعل شيئاً حتى أثيرت الشكوك بضلوع جهات فيها بعملية الاغتيال.

أكمل عراق ما بعد الاحتلال التدمير الذاتي من خلال موجة كبرى من الصراع الحاد على المناصب والحقد الطائفي والإثني واحياء الولاءات القبلية وهدر الموارد واختلاس الأموال العامة والفساد الذي ضرب كل وزاراته ومؤسساته وجامعاته، وأصبح من المعتاد سرقة مليارات الدولارات من صفقات سلاح أو حتى من حساب مصرفي للحكومة. حرص العراق على تمتين علاقاته مع الدول العربية التابعة والعميلة لأمريكا وفي مقدمتها الأردن ومصر ودول

الخليج، وراوحت علاقاته مع سوريا التي صدر لها الإرهاب بين العداء والفتور، فداوم على تزويد الأردن بالنفط بأسعار متهاودة وينوي مد أنبوب لتصدير نفطه عبر أراضيها. في الوقت الذي كان الصهاينة يقتلون المئات من رجال ونساء وأطفال الفلسطينيين في غزة يومياً بأسلحة أمريكية ودعم مطلق من أمريكا دافع وزير خارجية العراق عن الدور الأمريكي في المجازر الصهيونية مدعياً بأن أمريكا تسعى للسلام وإنهاء القتال. وفي 27 تشرين الأول من هذا العام اكتفى العراق بالتفرج على الطائرات الصهيونية المعتدية التي قصفت مواقع إيرانية مروراً بالأراضي العراقية ومن داخلها في صورة جلية لخنوع العراق للاحتلال الأمريكي ومن خلفه الكيان الصهيوني، واللافت غياب ردود فعل غاضبة في الشارع العراقي لهذا الانتهاك السافر لسيادة العراق وبتواطؤ أمريكي والعدوان على الجارة إيران بعد صدور وعود من حكومتهم بمنع استهداف إيران من أراضيها، فلا مظاهرة أو مسيرة مستنكرة ولا دعوة جماهيرية لإجلاء القوات الأمريكية من دون تأخير مما يدل على عدم اكتراث العراقيين لذلك، فهل النيجر الدولة الأفريقية الفقيرة شبه الصحراوية الأقل سكاناً ومورداً والمستهدفة من الإرهاب السلفي أكثر حمية وغيرة على استقلال بلدهم وهم أخرجوا القوات الأمريكية والفرنسية خلال أسابيع؟ وفي مراجعة موجزة للتأثيرات الكارثية لخذلان عراق ما بعد الاحتلال لقضية فلسطين يسجل ما يلي:

أولاً: دفن مركزية قضية فلسطين.

ثانياً: ابرام اتفاقات إبراهام وتطبيع الإمارات العربية المتحدة والبحرين والمغرب والسودان مع الكيان الصهيوني الغاصب وإنشاء

علاقات سياسية ودبلوماسية واقتصادية معه والتمهيد لانضمام دول أخرى لموجة التطبيع الخيانية.

ثانياً: تقوية محور معاداة المقاومة ودعاة الاستسلام والتطبيع مع الكيان الصهيوني سياسياً ودبلوماسياً واقتصادياً.

ثالثاً: تمكين الصهاينة والجماعات الكردية المسلحة من تنفيذ عمليات إرهابية داخل إيران.

رابعاً: انتقال الإرهاب السلفي الداعشي وغيره إلى سوريا واضعاف حكومتها المساندة للمقاومة.

خامساً: السماح لأمريكا باستعمال الأراضي العراقية لاحتلال الشرق السوري وإنشاء قواعد عسكرية على أراضيها وسرقة نفطها ومحاصيلها ونقلها إلى حكومة منطقة الأكراد العراقيين لتسوقها وقيل لتصدير النفط إلى دولة الصهاينة.

سادساً: استحكام الدول الخليجية التابعة لأمريكا والغرب سيطرتها على القرار العربي والإسلامي.

سابعاً: بعد خلو المنطقة من العراق القوي استسهلت الدول الخليجية وبالأخص السعودية وقطر والإمارات العربية المتحدة وكذلك الأردن التابعة لأمريكا والغرب تخريب النظم العربية المستقلة في سوريا وليبيا والجزائر من خلال تصدير الإرهاب السلفي الوهابي ورفده بالمال والسلاح والفكر المختلق والمنحرف.

ثامناً: تجرؤ السعودية والإمارات العربية المتحدة وقطر وحلفائهم على التدخل العسكري في اليمن وإنشاء المليشيات العميلة لهم

بهدف تقويض استقلال اليمن وفرض الوصاية الخليجية عليه وضمان خضوعه لسياسات أمريكا والغرب.

تعلن بعض التنظيمات المسلحة العراقية المؤيدة لجبهة مقاومة الصهاينة عن تنفيذ عمليات محدودة بين الحين والآخر ضد ما تسميه "أهدافاً حيوية" في الكيان الصهيوني، وهي بالمجمل لا تتعدى في حجمها وتأثيرها عمليات المقاومة في أي من غزة ولبنان واليمن في يوم واحد، وكان الأجدر بها إخراج قوات الاحتلال الأمريكي من العراق والذي لو حدث لكان هزيمة كبرى للمخططات الأمريكية والصهيونية في المنطقة، وبالنتيجة فالعراق ليس دولة مقاومة بل هو متربع في الحضن الأمريكي ومتحالف مع أتباعها العرب، فالقضية الفلسطينية ليست مركزية في سياساته ولا هي هامشية وكل ما اقترفه العراق من حروب وفتن وتفريخ الإرهاب واستجلاب للاحتلال والرضوخ له خذلان مبين ومشين لقضية فلسطين المصيرية للعرب والمسلمين، والتستر على ذلك خيانة للقضية أيضاً.

30 تشرين الثاني 2024م